علاقة المشرق العربي بالمغرب العربي في ضوء مسألة النضال الوطني: الجزائر أنموذجاً

الدكتورة. فاطمة حباش
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
جامعة ابن خلدون _ تيارت_الجزائر
Fatima_hab@yahoo.com

الملخص

عرفت الجزائر على مر العصور والفترات التاريخية المختلفة تطورات وأحداثا سياسية واجتماعية أثرت على نسقها السياسي والاجتماعي، فأحدثت بها تغييرات مختلفة، منها في الفترة المعاصرة حين كانت عرضة للغزو الاستعماري الأوروبي على يد فرنسا، التي لم تتوان في إعطاء طابع انتقامي لتواجدها، ترجمته سياستها الاستعمارية الرامية إلى تحقيق السيطرة التامة على الجزائر أرضا وشعبا، وكذا فكريا وروحيا عن طريق الفرنسة والإدماج، وإقصاء الثقافة العربية والإسلامية. إذن، نجد هذا الهدف الاستعماري الرامي إلى ضرب الهوية العربية الإسلامية قد أدى إلى حدوث رد فعل قوي ورفض مطلق من الجزائريين للاعتراف بهذه السلطة الأجنبية، وقبول الانسلاخ عن انتمائهم الأول، ميزته تلك المقاومة الوطنية بمختلف أشكالها وأنماطها وفي مختلف الفترات نصرة للوطن والدين، استندت على مرجعية ذات اتجاه عربي إسلامي، وهذا بحكم طبيعة العلاقة التاريخية والحضارية التي تجمع بين المشرق والمغرب العربيين، من منطلق التاريخ المشترك، والعقيدة الدينية واللغة العربية، وفعلا أسهمت هذه العلاقة والترابط في حدوث نوع من التجديد والارتقاء في الكفاح الجزائري ضد الاستعمار الفرنسي تجسد في معالم ومظاهر مختلفة طيلة فترة الاحتلال.

من أجل فهم هذه العلاقة وتحليلها، ومعرفة انعكاسها على الجزائر طرحت إشكالية مفادها: " إلى أي مدى أسهم المشرق العربي بوصفه إطارا جغرافيا وبشريا، وبأبعاده الفكرية والسياسية في استمرار النضال الوطني بعد فشل المقاومة العسكرية؟ ما هي مظاهر هذا التعامل وما هي معالمه؟ أو التأثير في الكفاح الجزائري في مختلف مراحله وأشكاله خلال القرن العشرين؟

Abstract

Algeria witnessed, throughout the ages and different historical periods, political and social developments and events that affected its political and social order,

which brought about various changes. One of them during the contemporary era, when it was invaded by France, which gave its presence a vengeful character, reflected by its colonial policy aiming to Achieve a complete control over Algeria, land and people, as well as intellectually and spiritually, through the integration, and the exclusion of Arab and Islamic culture.

This colonial goal aiming the demolishing of the Arab-Islamic identity, led to a strong reaction and absolute refusal of the Algerians to recognize this foreign authority and its policy. Believing in Arab Islamic principles, historical and civilizational relationship, brought together the East (Mashreq) and the west (Maghreb) of the Arab World, on the basis of a common history, religious belief and the Arabic language. Indeed, this relationship and interdependence contributed to the occurrence of a kind of renewal and advancement in the Algerian struggle against French colonialism embodied in various features and manifestations throughout the occupation period.

In order to understand and analyze this relationship and its reflection on Algeria, the research raised the question as: "To what extent did the Arab East, as a geographical and human framework, and with its intellectual and political dimensions, continue to contribute in the national struggle of Algeria after the failure of the military resistance? What are the manifestations and features of this interaction or influence on the Algerian struggle in its various stages and forms during the 20th century?

تمهيد:

عرفت الجزائر بوصفها إطارا جغرافيا، العديد من الأحداث والتطورات السياسية والاجتماعية منذ فترة طويلة جعلتها مرتبطة بالبعد الحضاري العربي والإسلامي، والذي تعود جذوره إلى فترة الفتح الإسلامي عندما كانت أحد الأقاليم الثلاثة للمغرب الإسلامي: المغرب الأدنى، المغرب الأوسط، المغرب الأقصى، فكانت بذلك مجالا جغرافيا شاهدا على العديد من التطورات، كما عرفت أجزاؤها كيانات سياسية زمانية ومكانية ذات البعد الإسلامي، واستمرت كذلك في العهد العثماني لتشكل بموقعها الاستراتيجي على ضفة البحر المتوسط حصنا منيعا، وقاعدة استراتيجية للدولة العثمانية في صراعها ضد الوجود الأوروبي النصراني، أي مارست دورا حضاريا فرضت به سلطتها كإيالة عثمانية طيلة ثلاثة قرون على الأوربيين، الأمر الذي جعلها في نظرهم عائقا يستوجب التخلص منه ليتحقق ذلك مع تراجع نفوذ الدولة العثمانية وبداية ضعفها بتوالي الحملات الأوربية على ممتلكاتها، منها إيالة الجزائر التي انتهى مصيرها بين قبضة الاستعمار الفرنسي.

حاولت فرنسا بعد نجاح حملتها على مدينة الجزائر أن تعطي لوجودها طابعا قوميا ودينيا متخذة من الانتقام مبدأ ضمنيا، أولا لشرفها المهان من قبل الداي حسين، وثانيا من الإسلام واسترجاع مجد المسيحية بالجزائر وشمال إفريقيا عموما، والدليل البيان الذي أذاعته للدول الأوربية والبابوية؛ لتبرير شرعية حملتها العسكرية على أنها جزء من سلسلة الحملات الصليبية السابقة لنصرة المسيحية على الإسلام (أبو القاسم، س. 1992: ج1، 15-16).

وفعلا تجسد هذا المبدأ الانتقامي من الإسلام والمسلمين في السياسة الاستعمارية التي تبنتها فرنسا طيلة فترة الاحتلال، والتي تميزت بالتنوع والتطور في الشكل والنوع قاصدة ضرب الهوية العربية والإسلامية للجزائريين. وفي الحقيقة هذا الهدف الرئيسي الفرنسي هو اعتراف ضمني بالعلاقة بين المشرق والمغرب العربيين، والتي فرضتها طبيعة التاريخ المشترك والعقيدة واللغة والقناعات الإيمانية لروح عقيدة الإسلام، والتي كانت الدافع الأول الذي عبر من خلاله الجزائريون رفضهم لهذه السلطة الأجنبية، وعدوا وجودها انتهاكا لهويتهم العربية الإسلامية، وعبروا عن ذلك من الوهلة الأولى بإعلان مقاومة قائمة على الاتجاه العربي الإسلامي المتوارث، قادتها زعامات سياسية ودينية اتخذت من (الجهاد المقدس) شعارا ضد الاستعمار الفرنسي، على غرار الأمير عبد القادر الذي انطلق في نضاله من مشروع دولة مستندا على مبدأ القومية، وعلى مبادئ الشريعة الإسلامية، كاعتماده نظام المبايعة والشورى في بناء سلطته، ثم الدعوة للجهاد المقدس نصرة للدين والوطن على حد سواء (فيلالي، عبد السلام. 2013: 120-121)، واستمر من بعده زعماء آخرون خاضوا النضال، فحافظوا على شعاره نفسه (الوطن والدين) في مجابهة الاستعمار وسياسته الاستعمارية التي فرضها منذ بداية الاحتلال وبتوالي الفترات في محاولته القضاء على الإسلام وهويته العربية، وإعادة أمجاد المسيحية من خلال مصادرة أملاك الوقف، ومراقبة التعليم العربي، والإشراف المباشر عليه، وتسيير شؤونه لصالحهم، إضافة إلى انتهاك حرمة المقدسات الدينية وتدنيسها بتحويل العديد من المساجد إلى كنائس، وأكثر من ذلك إلى إصطبلات، وتحطيم الزوايا واستهداف القضاء الإسلامي، وتشجيع حركة التنصير، الغاية من كل ذلك قطع المجتمع الجزائري عن انتمائه العربي الإسلامي ومحاولة طمس هويته العربية، الذي كان دائما العنصر المعرقل للتوسع الفرنسي ومنعه من الوصول إلى مرحلة الاستعمار الاستيطاني على اعتباره السند الروحي الذي ارتكزت عليه المقاومة الوطنية خلال القرن التاسع عشر (بلاسي، أن. 1990: 31-42)/ (أبو القاسم، س. 1992: ج1، 74، 79-85، 90-95).

يمكن القول أن العلاقة بين الجزائر والمشرق كانت موجودة وبتلقائية، بحكم الاشتراك في عنصر العقيدة، وأثرها في النضال، كان بدون ترتيب أو تدبير على أساس مبدأ المقاومة " الجهاد المقدس".

غير أن هذه العلاقة اتخذت طابعا خاصا خلال القرن العشرين، سمح بأن تصبح وفي فترات متواليه إحدى العوامل المؤثرة في إعادة بعث النضال الوطني واستمراره بعد تراجع وضعف المقاومة العسكرية، وبالطبع هذه المساهمة جاءت بها ظروف عرفتها الجزائر والعالم العربي على حد سواء مع نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين لتجعل ذلك التواصل عاملا مؤثرا خدم النضال بأنماط وأشكال مختلفة وسمح له الخروج من البعد الوطني إلى بعد أوسع مقترنا دائما بمسألة الانتماء إلى الهوية العربية.

ومن أجل تشريح هذا التواصل بين المشرق والمغرب العربي في ضوء النضال الجزائري ضد الاستعمار الفرنسي، استوجب علينا طرح إشكالية محورية تمثلت في: " إلى أي مدى أسهم المشرق العربي بوصفه إطارا جغرافيا وبشريا، وبأبعاده الفكرية والسياسية في استمرار النضال الوطني بعد فشل المقاومة العسكرية؟ ما مظاهر هذا التعامل أو التأثير ومعالمه في الكفاح الجزائري في مختلف مراحله وأشكاله خلال القرن العشرين؟، وهل العلاقة الثنائية بينهما اقترنت فقط بعنصر التأثير والمساهمة في النضال، أم تعدى الأمر إلى مجال أوسع بالتداول في القضايا الإقليمية والعربية الأخرى؟"

إذن، للإجابة عن هذه التساؤلات استوجب الانطلاق من خطة علمية شملت عناصر تسمح لنا ووفق المنهج التاريخي التحليلي تتبع مراحل التأثير العربي في مسألة النضال، وأهم الانعكاسات والنتائج المستخلصة من هذه العلاقة، ونحددها في العناصر الآتية:

_ عوامل التواصل المباشر بين المشرق والمغرب العربيين
_ مظاهر التأثير في النضال الوطني ومعالمه
_ أهم الانعكاسات المترتبة على العلاقة

1. عوامل التواصل المباشر بين المشرق والمغرب العربيين:

لعل التواجد الفرنسي بالجزائر اتخذ طابعا ترجمته السياسة الاستعمارية المتنوعة والشاملة، غايتها الأساسية تحقيق السيطرة التامة على الجزائر أرضا وشعبا من خلال تطبيق عنصر الإدماج التام والفرنسة في كل الجوانب، ومحاولة تجريد العنصر البشري من هويته العربية الإسلامية، وغزوه فكريا وعقليا بمحاربته في دينه ولغته ومقدساته، وغمسه في الأمية المطلقة وإبعاده عن تعاليم شريعته الدينية بتشجيعه على ممارسة الرذيلة والأخلاق المنحطة، وكذلك عن طريق إحلال الثقافة الغربية المسيحية محل الثقافة العربية الإسلامية (بوهند، خ. 2015: 196-197)/ (دبوز، م ع. 2013: ج1، 45)

ووجدت ضالتها في تحقيق ذلك عندما تمكنت من إضعاف وإقصاء السند الروحي للمقاومة العسكرية " الدين الإسلامي" عن طريق سياسة التدجين التي اتبعتها مع المرابطين وشيوخ الزوايا والطرق الصوفية،

الأمر الذي جعل بعضهم ينحرفون عن دورهم النضالي، وأصبحوا مجرد عنصر ديني مدجن تحت رحمة الإدارة الاستعمارية وفي خدمتها من خلال التشويه في الممارسة الدينية بعادات وشعائر تتنافى والشريعة الإسلامية (أبو القاسم، س. 2000: ج1، 572)/ (بلاسي، أن. 1990: 48)/ (بن خليف، م. 2010: 64-65).

إذن، تحت هذا التأثير نجحت فرنسا في ضرب عصب النضال وتراجعت المقاومة بطابعها العسكري مع نهاية القرن التاسع عشر، لكن في نفس الوقت لم تستطع إنهاء النضال الوطني أو إلغاء موقف الرفض عند الجزائريين ضد وجودها والركون إلى الخضوع والاستسلام لها، بل بقي ثابتا ولم يتغير، أي نقول أن الجزائر عرفت مع أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين نهضة شاملة مكنتها من تهيئة إطار مناسب لنضالها، قائم على الارتقاء والتجديد أسلوبا ونمطا في صراعها الحضاري ضد الاستعمار الفرنسي، وأسهمت في هذه النهضة العديد من العوامل منها ما هو داخلي متعلق بالقمع والعدوان الذي مورس في حق الدين واللغة العربية، ومنها ما هو خارجي ارتبط في جانب منه بالمستجدات الحاصلة في المشرق العربي، وتأثر بها الجزائريون واستفادوا منها في العمل السياسي الوطني، إذ من بين العوامل التي أسهمت في خلق نوع من الاستمرارية في النضال بأسلوب جديد هي الأفكار والتطورات التي عرفها المشرق، منها فكرة الجامعة الإسلامية والحركة النهضوية الإصلاحية (بن أزواو، ف. 2013/2012: 51-54)، وبلغ صداها الجزائر بفضل قنوات مكنت من انبعاث الإرهاصات الأولى للعمل السياسي الوطني ويمكن حصرها في:

1. حركة الهجرة للجزائريين نحو المشرق العربي على فترات زمانية متوالية من تاريخ الاحتلال بشكل فردي أو جماعي، ولدوافع مختلفة ارتبطت بالممارسة الدينية كأداء فريضة الحج، أو لممارسة التجارة، إضافة لأغراض سياسية، منها ما تعلق بحالات الهجرة القصرية والإبعاد بالنفي على خلفية فشل المقاومة، أو بسبب الظروف الصعبة المقترنة بالسياسة التعسفية للإدارة الاستعمارية كفرض قوانين تعسفية منها قانون الأهالي سنة 1881 والتجنيد الإجباري سنة 1912 فقرروا تحت وطئها الرحيل عن بلدهم للعيش في كنف العروبة والإسلام (أبو القاسم، س. 2000: ج1، 552-554)/ (أبو القاسم، س. 2009: ج5، 473)/ (مريوش، أ. 2006: 30-31)/ (خياطي، م. 2013: 256) ، ومهما تنوعت أسباب الهجرة فإنها فتحت للجزائريين الفرصة للاحتكاك بمجتمع المشرق العربي والاطلاع على الأفكار الإصلاحية التجديدية المنتشرة هناك.

2. الهجرة العلمية لبعض العلماء والطلبة طلبا للعلم بالمعاهد العربية الإسلامية بعدما طمست معالمها على يد الاحتلال بالجزائر، فكانت الوجهة إلى معهد الزيتونة، وبعدها الأزهر والحجاز، فمنهم من استقر بالحرمين الشريفين أو المسجد الأموي والأقصى، وعند عودتهم رجعوا بزاد علمي وثقافي عربي وبأفكار إصلاحية وظفوها في العمل السياسي (بوهند، خ. 2015: 288-291)/ (بلقاسم، م. 2013: 230-235)/ (أبو القاسم، س. 2000: ج1، 556-558).
3. مثلما كانت للهجرة وطلب العلم دور في التواصل بين المشرق والمغرب العربي، نجد الصحف والجرائد وسيلة أخرى للربط بينهما فكريا، فبالرغم من الحظر الاستعماري إلا أنها كانت تتسرب إلى الجزائر سرا من مصر وبقية البلدان العربية بطرق مختلفة عبر تونس والمغرب الأقصى أو عن طريق الحجاج والمسافرين القادمين إلى المشرق لأغراض مختلفة[1]. وكان لها الفضل في إعانة الجزائريين إلى نشاطهم الإصلاحي النهضوي، وايقاظ الضمير العربي الإسلامي، وربطهم روحيا وفكريا بالمشرق العربي ومنها: العروة الوثقى ، المنار، اللواء، ....إلخ.

3. مظاهر التأثير في النضال الجزائري ومعالمه:

بالرغم من أن التواصل البشري والحضاري بين المشرق والمغرب العربي قديم وضارب في التاريخ، تجسده مختلف العلاقات السياسية والاجتماعية والفكرية والثقافية، التي وجدت بينهما على فترات تاريخية متوالية، وبحكم ذلك الترابط التاريخي والانتماء للحضارة العربية الإسلامية، إلا أننا عندما نقيس هذه العلاقة من زاوية النضال الوطني نجدها ذات خصوصية، كونها كانت إحدى مقومات الاستمرار النضالي للجزائريين خلال القرن العشرين، والذي تنوع نمطه بين العمل السياسي من خلال نشاط الحركة الوطنية (1900-1954)، وبين العمل المسلح مع اندلاع الثورة التحريرية (1954-1962)، أين نلمس حضور بشري وجغرافي للمشرق في النضال الجزائري، وهو ما سنحاول استحضاره مع تتبع مميزاته وأنماطه في ظل المتغيرات والتطورات للنضال الوطني.

a. النضال السياسي (1900_1954):

عندما نحاول الحديث عن مرحلة النضال السياسي الجزائري فلا بد الأخذ بعين الاعتبار التطورات التي عرفها هذا النمط النضالي، ووجوب التمييز بين مرحلة الإرهاصات الأولى للنضال وبوادر النهضة مع القرن العشرين إلى نهاية الحرب العالمية الأولى، ليأتي بعدها مرحلة تبلور الحركة الوطنية الجزائرية وانتظامها في تيارات وطنية نشطت بالساحة السياسية للجزائر خلال فترة الثلاثينيات والأربعينيات، وفي كل المراحل نلمس إسهاما للمشرق نحصره ب:

لعل الحركة الإصلاحية التي ظهرت بالمشرق العربي على يد زعماء أمثال محمد بن عبد الوهاب، وجمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، قد سمحت بظهور حركات فكرية نهضوية من السلفية إلى الجامعة الإسلامية لقيت لها حضورا وانتشارا في الجزائر، إذ كانت بوادرها على يد العلماء الذين اكتسبوا تكوينا حضاريا وسياسيا مكنهم بعد عودتهم إلى الاستفادة من هذه الأفكار الإصلاحية، وتوظيفها بما يتماشى وظروف الجزائر، فهم وصلوا إلى قناعة أنهم أمام صراع حضاري مع فرنسا يستوجب الاعتماد على إصلاح النفوس بالتربية الدينية، وإنارة العقول بالتعليم العربي الإسلامي الصحيح، وإصلاح المجتمع وتطهيره من كل حالات الخمول والعفن التي أحدثها الاستعمار وسياسته الإقصائية العنصرية التدميرية. إذن، هذه الحركة الإصلاحية مكنت الجزائريين من التجديد في النضال، وإعطائه بعدا حضاريا عربيا نواته الإصلاح الديني (دبوز، م ع. 2013: ج1، 45).

إلى جانب التواصل الثقافي العلمي بين الجزائر والمشرق العربي ودوره في النهضة السياسية نجد دور الصحف المشرقية باختلاف أنواعها، وما تنشره من أفكار إصلاحية وتربوية حمست الجزائريين ومكنتهم من بلورة وعيهم السياسي وإيقاظ الضمير العربي الإسلامي في الجزائر، وأعطت للنضال الوطني انطلاقة جديدة ضد الاحتلال معتمدين أساليب متنوعة في الممارسة السياسية منها: السعي إلى إنشاء صحافة وطنية جزائرية ذات بعد عربي إسلامي كجريدة الفاروق لعمر بن قدور الجزائري التي كرسها لمحاربة البدع والخرافات، وجريدة ذو الفقار لصاحبها عمر راسم، وهي سليلة الصحف المشرقية وخاصة الصحف العبدوية (بن أزواو، ف. 2013/2012: 51-54)/ (عويس، ع. 1985: 18-19). كما نلمس في خضم هذا المناخ الثقافي حركة التعليم والتأليف، وإحياء التراث الجزائري على غرار أبو القاسم الحفناوي وتأليفه لكتاب " تعريف الخلف برجال السلف"، وكتاب تحفة الزائر في تاريخ الأمير عبد القادر وتاريخ الجزائر لمحمد باشا بن عبد الأمير ...إلخ، إضافة إلى إنشاء النوادي الثقافية التي يتم بها تبادل الأفكار في مختلف القضايا الدينية والثقافية والسياسية، وإلقاء المحاضرات وقراءة مختلف الصحف العربية والكتب الواردة من المشرق، هادفين من كل ذلك الاطلاع على أخبار العالم العربي والاستفادة من تيار النهضة وروح التجديد في النضال ضد الاستعمار (بن أزواو، ف. 2013/2012: 53).

ولا بد من التنويه إلى جانب ما ذكر سابقا، نجد أفكار محمد عبده قد أسهمت في النشاط التجديدي، فقد لاقت كتبه إقبالا عند كثيرين من العلماء الجزائريين كعبد الحليم بن سماية وعبد القادر المجاوي، ومحمد ابن شنب، الذين عمدوا إلى تدريس إنتاجه الفكري لتلامذتهم، إضافة إلى زيارته المباشرة للجزائر سنة 1903، وهي الرحلة التي تركت تأثيرا علميا عند المثقفين (دبوز، م ع. 2013: ج2، 29-36) .

استمر تأثير المشرق العربي في النضال الجزائري بعد نهاية الحرب العالمية الأولى لتكون له لمسة مع المتغيرات والإيديولوجيات التي تمخضت عن الحرب، ليأخذ طابعا مختلفا عن مرحلة النهضة وبوادر العمل السياسي، فالإيديولوجية الماركسية والأمريكية والصراع بينهما، وما تمخض عن مبادئ ولسن سنة 1919وقرارات سان ريمو سنة 1920 التي أعطت حق الانتداب الفرنسي على سوريا مما جعل العديد من مناطق المشرق تحت رحمة الاقتسام وعرضة للاستعمار بأشكال مختلفة، مما أدى إلى تغيير مفهوم القومية أحادية الجانب مقترن بالانتماء العربي، إلى مفهوم ثنائي عربي إسلامي. وهذه الازدواجية في مفهوم القومية يعود الفضل فيها إلى شكيب أرسلان الذي جمع بين العواطف الوطنية السياسية والعواطف الدينية في حلقة واحدة " الجامعة العربية الإسلامية" (بن أزواو، ف. 2013/2012: 209-213).

إذن، هذا التوجه الجديد بالمشرق كان له انعكاس على النضال بالجزائر حيث أسهم في استمرار الممارسة السياسية وبلورة النضال، حيث اتضحت معالم الحركة الوطنية الجزائرية بتشكل مختلف تياراتها، التي استند بعضها على فكر أرسلان، ونخص هنا تيار العلماء الذي بدأت نواته مع 1920 عند عودة العلماء من المشرق بعد المدة الطويلة التي قضوها هناك، فكانت لهم فرصة الاطلاع العلمي وكذلك التشبع بمختلف الطروحات السياسية المنتشرة هناك (بلقاسم، م. 2013: 228_-230)/ (مريوش، أ. 2012: 39-40)، إضافة إلى عقد علاقات واتصالات مع شخصيات نضالية على غرار شكيب أرسلان، الذي كانت تربطه علاقة صداقة وود مع علماء جزائريين مثل أحمد توفيق المدني، عبد الحميد بن باديس، الطيب العقبي، مبارك الميلي، وحتى تلاميذهم كمحمد سعيد الزاهري، فهو بمثابة الملهم الروحي لهم والمرشد في الفكر العروبي الإسلامي (بلقاسم، م. 2013: 265) ، وفي هذا الصدد مثلا يذكر توفيق المدني أن تواصله مع أرسلان عندما كان عضوا في الحزب الدستوري التونسي، كان يتراسل معه، وكان من المروجين لجريدته " الأمة العربية" منذ 1923، ونفس الأمر مع الطيب العقبي الذي تبادل معه الأفكار عبر الرسائل، فتدارس معه مصير العالم الإسلامي وقضايا السياسة المتعلقة بالاستعمار خاصة بعدما ظهرت الحماية والانتداب الأوربي بالبلاد العربية (بلقاسم، م. 2013: 266)/ ((مريوش، أ. 2012: 40)/ (أبو القاسم، س. 2009: ج4، 121).

لم يقتصر تأثير أرسلان على العلماء بالاتصالات المباشرة وإنما كان من خلال جريدته " الأمة العربية" التي روج لها العلماء بالجزائر وكانوا يجمعون لها الاشتراكات، فهي كانت تدعو إلى الوحدة السياسية للعالم العربي الإسلامي وبشكل مرحلي [(2)].

نستطيع القول أن فكرة القومية العربية الإسلامية التي نادى بها شكيب أرسلان كانت بمثابة المرجعية للعلماء؛ لتثبيت وترسيم تيارهم النضالي بالجزائر، فتوثيق الصلات بينه وبين العلماء مكن عبد الحميد بن

باديس ورفاقه من إيجاد نواة تيارهم الإصلاحي القائم على مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بكل أنواعه جامعين بين الانحلال الاجتماعي والفساد السياسي على يد الاستعمار، وضرورة تطبيق الوحدة العربية الإسلامية كونها تجمع في طياتها عناصر مشتركة بين المسلمين كاللغة والتاريخ المشترك، مضافا إليها المعاناة الاستعمارية، وبذلك نجدهم يسيرون في فلك التوجه القومي العروبي لأرسلان معتبرين إياه أكبر مدافع عن الإسلام والعروبة على حد سواء في الشرق والغرب (بن خليف، م. 2010: 106، 274-279).

اعتمدت الحركة الإصلاحية بقيادة العلماء في نشاطها ذي البعد السياسي العديد من الوسائل منها الوعظ والإرشاد عبر المحاضرات التي كانت تلقى في النوادي والجمعيات، كما سعوا إلى فتح مدارس حرة بمختلف المناطق تشجيعا للتعليم العربي، إضافة إلى ممارسة الصحافة وسيلة لشرح مبادئها التربوية والفكرية ونشرها، متخذين شعار " الإسلام ديني، والعربية لغتي، والجزائر وطني" (بلاسي، ن أ. 1990: 41-42)/ (بلقاسم، م. 2013: 255-258).

يمكن القول أن المشرق العربي بما يزخر من شخصيات وتحولات سياسية وفكرية أسهم في إيجاد أهم تيار في الحركة الوطنية، والذي رسم بميلاد جمعية العلماء المسلمين في 5 ماي 1931، فكانت بمثابة الرابط الحقيقي في الاستمرار المباشر والعلني ضد الاستعمار ومحاولاته في طمس الهوية العربية الإسلامية للمجتمع الجزائري لمدة زادت عن أكثر من قرن، لكن مشروع العلماء القادمين من المشرق والمتحصنين بأفكار وطروحات سياسية ودينية ذات بعد إسلامي عربي أقصوا الاعتقاد الفرنسي بأنهم تمكنوا من تدمير الروح الإسلامية الجزائرية من خلال مشروعها التغريبي القائم على الفرنسة والاندماج والتشويه للهوية.

شكل نشاط تيار العلماء بواسطة جمعية العلماء المسلمين فرصة لإحياء وانبعاث حضاري من جديد بالجزائر مؤكدين في الوقت نفسه أن الشعب الجزائري جزء من الأمة العربية الإسلامية تشترك من حيث مبدأ القومية في عناصر منها اللغة العربية لغة القرآن، والتاريخ المشترك مضافا لهما الأمان والآلام من الاستعمار الأوروبي، وبالتالي هي امتداد للأمة العربية الإسلامية بغض النظر عن التنوع في عنصرها البشري من عرب وبربر فكلهم مسلمون يدينون بالإسلام (بن خليف، م. 2010: 106، 274-277).

وعن هذا يقول الرجل الأول في الجمعية عبد الحميد بن باديس : " .....إذا قلنا العرب فإننا نعني الأمة الممتدة من المحيط الهندي شرقا إلى المحيط الأطلنطي والتي فاقت سبعين مليونا تنطق العربية وتفكر بها وتتغذى من تاريخها وتحمل مقدارا عظيما من دينها، وقد صهرتها القرون في بوتقة التاريخ حتى أصبحت أمة واحدة....هذه الأمة العربية تربط بينها زيادة على رابطة اللغة، رابطة الجنس، ورابطة

التاريخ، ورابطة الألم ورابطة الأمل فالوحدة القومية والأدبية متحققة بينها لا محالة...." (بن باديس، ع. 1938: ج11، م13، 472).

ولكن لا بد من الإشارة أنه وبالرغم من الارتباط وولاء الحركة الإصلاحية بالجزائر بالحركات الإصلاحية المشرقية إلا أنها تبقى تحتفظ بخصوصية كونها مستقلة عن الفكر السلفي الوهابي، أو الفكر الأفغاني أو حتى العبداوي، فهي حاولت استغلال ما حمله المشرق من تغييرات وأفكار وتوظيفها وفق ما يتماشى مع الطبيعة المحلية للمجتمع الجزائري، وكذلك حسب الظروف التي فرضها الاستعمار، لذلك نجدها حركة إصلاحية قائمة على فكرة الجامعة الإسلامية المحضة مع بداية القرن العشرين، لتصبح حركة إصلاحية مرتبطة بالقومية العربية الإسلامية خلال فترة الثلاثينيات والأربعينيات، حيث شكلت مصدر قلق وخطرا على السلطة الاستعمارية لأنها تسعى إلى تحقيق الوحدة الروحية والفكرية ولم الشمل تحت راية الإسلام لأنه السبيل الوحيد لتأصيل الأمة الجزائرية المسلمة.

لم يقتصر دور شكيب أرسلان في النضال الوطني على الحركة الإصلاحية وميلاد تيار العلماء، وإنما تعددت أشكاله وأنماطه بتنوع علاقاته واتصالاته، مما يعني ذلك علاقة أرسلان بالجزائر منذ الحرب العالمية الأولى، ميزها التطور والتبلور، وهذا لمعرفته بشخصيات من الجالية الجزائرية بأوروبا (بلقاسم، م. 2013: 262-265)/ (أبو القاسم، س. 2009: ج4، 120-121).

أسهم أرسلان في انفتاح تيار (نجم شمال إفريقيا) على مبادئ الفكر الإسلامي، أي تبنى توجها وإيديولوجية جديدة اقترنت بالقومية العربية الإسلامية، وهذا في حد ذاته تبلور وتطور في مسار التيار خلال فترة الثلاثينيات خاصة بعد إعلانه مبدأ الاستقلال سنة 1927، الأمر الذي أحدث شرخا بينه وبين عرابه الحزب الشيوعي الفرنسي، وأصبحا في صراع بينهما جعل حزب النجم في أزمة بأوروبا، تعرض للهجوم من قبل الشيوعين، والسلطات الفرنسية الرسمية في نفس الوقت، أصبح مناضلوه في حالة ملاحقة ومتابعة قضائية، واسقطت عليهم عقوبات بالسجن، وأكثر من ذلك تعرض الحزب للحل لأول مرة سنة 1929، مما اضطره للعمل سرا ابتداء من 1930، وكانت لهم الفرصة في هذه المرحلة التواصل مع شكيب أرسلان، خاصة سنة 1932 حسب ما ذكره أحد مناضلي الحزب المدعو بنون أكلي، الذي صرح بأن الفضل في التواصل مع أرسلان يعود إلى القاضي مصري محمد سالم باي، ومن هنا وجدت الفرصة لمصالي الاحتكاك به، وتوطدت العلاقة بينهما أكثر بعد مشاركة مصالي الحاج في المؤتمر الإسلامي بجنيف المنعقد في 12-1935/02/17، والذي سمح له معرفة أرسلان عن قرب وبناء تصور على فكره السياسي النضالي، فقد لمس خبرته في قضايا وشؤون المسلمين، وخلافاتهم ومشاكلهم، وانعكس تقاربهما على توجه حزب نجم شمال إفريقيا، حيث أعطى له دفعا قويا وجديدا، فالعلاقة مكنت النجميين التخلص

من السيطرة الشيوعية والتوجه العالمي، فهم بهذا التغير استطاعوا تحقيق توازن في مسار حزبهم بالحصول على سند مزدوج جمع فيه بين التضامن للحركة العمالية والتضامن العربي الإسلامي (أبو القاسم، س. 2009: ج4، 125-128)/ (بن أزواو، ف. 2013/2012: 161).

ومن المظاهر التي تدل على التغيير في مسار التيار الاستقلالي وانفتاحه على مبادئ الفكر العربي الإسلامي:

- تنظيم دروس حول اللغة العربية وتعاليم الإسلام بين المناضلين بداية من 1934، مشجعا إياهم التخاطب بالعربية.
- اعتماد اللغة العربية في منشوراتهم وبجريدة الأمة لسان حال الحزب.
- تشجيع المناضلين الاطلاع على التاريخ العربي الإسلامي ودعوتهم للابتعاد عن الأخلاق المنافية للدين.
- مهاجمته للإدماجين ومبادئهم المطالبة بإصلاحات في ظل الارتباط بفرنسا.
- تصريحاته المفعمة بالبعد العربي الإسلامي منها تصريحه في 1935/8/10 حين أكد أن السبيل الوحيد لتحقيق الوحدة العربية الإسلامية بشمال إفريقيا من أجل طرد الاستعمار يكون بالتربية والإصلاح.
- تأييده لفكرة المؤتمرات الاسلامية والمشاركة بها.

عموما العلاقة بين أرسلان ومصالي الحاج سمحت باتساع اهتمامات الحزب واحتواء برنامجه على مطالب تتعلق بقضية الدين واللغة العربية (بن أزواو، ف. 2013/2012: 163)/ (بلقاسم، م. 2013: 373-378).

استمر الدعم والمساندة المشرقية للنضال السياسي بالجزائر بطابع جديد فرضته المتغيرات والتطورات الدولية التي ترتبت على الحرب العالمية الثانية، وما أفرزته من مستجدات بالمنطقة العربية خاصة بعد 1945 على خلفية تأسيس الهيئة الدولية للأمم المتحدة، وتأسيس الجامعة العربية كهيئة إقليمية تعنى بالشأن العربي، مما انعكس إيجابا إلى حد ما على النضال الوطني خاصة بعد حالة الملاحقة والمضايقات المتكررة من قبل الإدارة الاستعمارية، الأمر الذي جعل المشرق ملاذا جغرافيا لمناضلي الحركة الوطنية المغاربية ومنهم الجزائر، فبعدما كان للمشرق الفضل في انبعاثهم الحضاري، واستحضار هويتهم العربية الإسلامية، إذ كان أحد عوامل الوعي السياسي والاستمرار النضالي، نراه مرة أخرى وبعد الحرب العالمية الثانية مجالا جغرافيا للممارسة السياسية لمختلف التيارات الوطنية خاصة تلك التي أعلنت تبنيها الفكر العروبي الإسلامي بالدرجة الأولى تيار العلماء ثم التيار الاستقلالي، من خلال أدوار قام بها أعضاء يحسبون على جمعية العلماء المسلمين، أو حركات انتصار الحريات الديمقراطية في فترات

مختلفة بين نهاية الأربعينيات ومطلع الخمسينيات حتى اندلاع الثورة التحريرية، فهم حاولوا مواصلة النضال من المشرق العربي وتحديدا من مصر التي شهدت تطورات منها احتضانها للجامعة العربية، إذن واصلوا الكفاح وسعوا إلى هيئات نضالية ذات طابع مغاربي والاتحاد تحت سقفها ضد الاستعمار، والتضامن من أجل الكفاح المسلح وتحقيق الاستقلال، ومن أهم هذه الهيئات التي أسست وكان للجزائريين دور فيها:

_ جبهة الدفاع عن إفريقيا الشمالية:

تأسست في 1944/2/18 على يد محمد الخضر الحسين ذي الأصول الجزائرية رفقة الأمير مختار الجزائري، والفضيل الورتلاني الذي أصبح أمينا لها، ضمت العديد من الشخصيات المغاربية، ولا بد من الإشارة قبل ميلادها كانت هناك محاولات أو مبادرة سابقة على يد الورتلاني الذي حاول بدخوله إلى المشرق من فرنسا إعطاء نوع من الانبعاث للقضية الجزائرية بالعالم العربي والإسلامي، فهو بادر بتأسيس اللجنة العليا للدفاع عن الجزائر سنة 1943، وكذا جمعية الجالية الجزائرية اللتان كانتا مرجعية وأرضية لتأسيس جبهة الدفاع عن إفريقيا الشمالية، ومن أهم الأهداف التي سطرت لها العمل على تحقيق حرية واستقلال شعوب شمال إفريقيا (بلقاسم، م. 2013: 467-470).

مارست نشاطها مع أكتوبر 1945 حيث وجهت مذكرة إلى هيئة الأمم المتحدة تدعو إلى ضرورة الاهتمام ونصرة الشعوب الضعيفة، كما وجهت مذكرة أخرى إلى الجامعة العربية تطالب بضرورة الاهتمام بالقضية الجزائرية والمغاربية عموما بصفتها جزء من العالم العربي، كما سعت إلى اطلاع الرأي العام بالمشرق العربي بأوضاع إخوانهم بالمغرب، وذلك بنشر المنشورات والمقالات عبر الصحف المشرقية : النذير، الهداية الإسلامية، الإخوان....إلخ (بلقاسم، م. 2013: 471-472).

استمر وتوسع نضال الجزائريين والمغاربة عموما بالمشرق وبالقاهرة تحديدا بعد المضايقات المستمرة من قبل السلطة الاستعمارية ليس فقط بالجزائر وإنما التهجم طال نشاطهم بالمشرق حيث حاولت التقليل من قيمة هذا الاتحاد، وفي الوقت نفسه إثارة الفتن بين عناصر على أساس التفرقة من ناحية الأصل بربر وعرب [6].

_ مكتب المغرب العربي:

بالرغم من أن مكتب القاهرة ليس الأول يجمع المغاربة، بل هو امتداد للمكتب الموجود بأروبا وتحديدا ببرلين، أسس على خلفية انعقاد مؤتمر المغرب العربي ما بين 15-22/2/ 1947 من أجل توحيد النضال لصالح قضيتهم التحريرية، تم فيه تدارس مختلف مشاكل المغرب العربي منها قضية الاستعمار الفرنسي، من أهم التوصيات التي خرجوا بها من المؤتمر تشكيل هيئة مشتركة تضم عناصر من مختلف

الحركات الوطنية، تتولى مهمة توحيد وتنسيق العمل للكفاح المشترك، وانتهت أشغال المؤتمر بإعلان عن تأسيس مكتب المغرب العربي يضم ممثلين عن أحزاب مغاربية: حزب الاستقلال وحزب الإصلاح عن المغرب، وحزب الدستور الجديد عن تونس، وحزب الشعب الجزائري عن الجزائر (الفاسي، ع. 2003: 375-379).

تواصل نشاط التعريف بالقضية الجزائرية بمساعي من مناضلي الأحزاب المغاربية وكذا شخصيات مشرقية خلال فترة الخمسينات كما هو الحال مع جمعية العلماء المسلمين التي بذل زعيمها البشير الإبراهيمي جهودا ومحاولات حثيثة لتوثيق الصلات بين الجمعية والدول العربية ، ومن مبادرته زيارته للدكتور محمد فاضل الجمالي في خريف 1951 بباريس بصفته ممثلا عن العراق ونائبا لرئيس الجمعية العامة حين طلب منه إثارة القضية الجزائرية بالأمم المتحدة بصفتها قضية عربية، وعن إسهامات الإبراهيمي نجد شهادة الدكتور محمد فاضل الجمالي يقول: " ....لقد عرفت الشيخ البشير الإبراهيمي مسلما صادقا في إسلامه وعالما مجاهدا في سبيل أمته. كما كان خير محفز لي شخصيا لأن أكرس كل طاقتي في خدمة القضية الجزائرية سواء في العراق أو في المحافل الدولية..." **(بوحوش، ع. 2015: 266-267)**

2_ مرحلة الكفاح المسلح وميلاد الثورة التحريرية (1954_1962):

مثل كل مرحلة تاريخية نجد عامل الظروف المحلية والدولية له انعكاس مباشر وتأثير على سير الأحداث، وهو ما حدث مع النضال الوطني ضد الاستعمار الفرنسي، حيث أصبح العمل السياسي عقيما وبلغ حالة من الانسداد مع فترة الخمسينيات بعد حالة الصراعات الداخلية التي عرفتها بعض الأحزاب الوطنية، ناهيك عن تعسف السلطة الاستعمارية مما جعل عمل الحركة الوطنية ونضالها السياسي غير مجدٍ، ولا يخدم القضية الوطنية، الأمر الذي سمح بظهور قناعات أثرت على الإيديولوجية النضالية عند الجزائريين، وبلغوا مرحلة القطيعة مع النضال الذي يعتمد لغة الحوار والقلم والوصول إلى مرحلة الكفاح المسلح لأن الاستعمار لا يفهم إلا لغة القوة والعنف.

كما أن الظروف الدولية في هذه الفترة ميزها انتشار موجة التحرر في إفريقيا وأسيا وخاصة بالعالم العربي مع أواخر الأربعينيات ومطلع الخمسينيات كلها أثرت على الموقف الجزائري بأخذ قرار العمل المسلح والتحضير لإعلان الثورة التحريرية التي تزامنت مع 1954/11/1.

منذ الوهلة الأولى نجد الثورة حملت في طياتها مشروعا حضاريا ذا طابع عربي إسلامي على غرار كل المراحل النضالية السابقة على أساس النضال الوطني ذي مرجعية دينية قائمة على فكرة المواجهة بين الإسلام والمسيحية. نلمس هذا البعد في محتوى بيان 1نوفمبر الذي أذيع ليلة اندلاع الثورة، والذي

حدد فيه الهدف الرئيسي هو تحرير الوطن وتحقيق الاستقلال الذي يضمن قيام دولة تستمد كيانها من أصالتها وهويتها، وهذا في حد ذاته تأكيد على الانتماء والارتباط التاريخي للجزائر بالعالم العربي والإسلامي، وفي الوقت نفسه هو رد ضمني على استمرار الكفاح باسم الإسلام والعروبة ضد المحاولات الفرنسية لطمس الهوية الجزائرية (بن أزواو، ف. 2013/2012: 210-211)/ (بلاسي، ن أ. 1990: 159-166).

قابل هذا الارتباط موقف الدول العربية والإسلامية عموما من الثورة التحريرية حيث كان لها وقع وتأثير على الدول حيث بادرت بإبداء التأييد والدعم المتنوع للكفاح المسلح للشعب الجزائري، حيث لقى المباركة من مختلف البلدان العربية وحكوماتها طيلة فترة الثورة مع نوع من التباين من حكومة لأخرى ومن نظام لنظام في الدولة الواحدة، ومن أهم مظاهر الدعم نجد:

_ الدعم السياسي والديبلوماسي من خلال التدخل لصالح القضية الجزائرية، والسعي على تدويلها بعرضها في هيئة الأمم المتحدة، والجامعة العربية، والمؤتمرات الأفرو- آسيوية، وبالطبع هذا من منطلق أنها قضية عربية، وفي هذا الصدد نسجل دور المملكة العربية السعودية التي أعربت عن حق الشعب الجزائري في تقرير المصير، وطالبت في 1955/1/5 بضرورة إدراج القضية في نقاشات الأمم المتحدة، كما نددت بالجرائم الوحشية الفرنسية في حق الجزائريين من إرهاب وتقتيل وتعذيب بدورات الجمعية العامة للأمم المتحدة سنتي 1956 و1958. نفس الموقف تكرر مع العراق ومصر ليتواصل لاحقا الدعم الديبلوماسي بالاعتراف بالحكومة المؤقتة، وتأييد المفاوضات الجزائرية (بن أزواو، ف. 2013/2012: 191-193)/ (بلقاسم، م. 2008: 253).

_ الدعم المادي من خلال التمويل المالي بمبالغ مالية معتبرة وعلى فترات متوالية من مختلف الدول في مقدمتها السعودية، مصر، العراق، الكويت، سوريا....إلخ، إضافة إلى تنظيم حملات تبرع شعبية.

_ تنظيم أسابيع تضامنية يتم من خلاله التعريف الثورة وبشرعيتها، ناهيك عن تنظيم الأيام الثقافية، وفي الوقت نفسه جمع التبرعات وكانت هذه المبادرات معممة في كل البلدان العربية الكويت، مصر، العراق،...إلخ .

_تموين وتزويد الثوار بالأسلحة والذخيرة في مقدمتها مصر، السعودية، العراق خاصة في عهد الحكم الجمهوري (بلاسي، ن أ. 1990: 189-193)/ (بلغيث، م أ. 2007: 195-199).

_ دور الإعلام العربي في خدمة الثورة من خلال فتح المجال للجزائريين تنشيط برامج عبر الإذاعات العربية، إضافة إلى السماح بفتح المجال للمكاتب الإعلامية باسم جبهة التحرير الوطني، والتي تولت

الدور الإعلامي والديبلوماسي، والانطلاقة الأولى كانت القاهرة لتعمم بباقي عواصم العربية دمشق، بيروت، عمان، بغداد،.....إلخ (أبو القاسم، س. 2009: ج9 227-228، 237-239).

3_ أهم الانعكاسات المترتبة عن العلاقة:

إن دراسة علاقة المشرق العربي بالمغرب من زاوية النضال الجزائري وتتبع مراحل تطورها وأهم التغيرات التي طرأت عليها سمحت لنا باستخلاص نتائج وقراءات حول طبيعة هذه العلاقة التي جمعت في طياتها ثنائية تأثير ودور المشرق في النضال الوطني الجزائري من جهة، ومن جهة أخرى أثر وانعكاس ذلك الدور في تبلور موقف الجانب الجزائري من قضايا النضال الوطني، ومن قضايا العالم العربي الإسلامي في مختلف الفترات، ويمكن حصر ذلك في مجموعة نقاط بدءا بالمحلي وصولا إلى المجال الأوسع والأشمل يعنى الأمة العربية الإسلامية:

_ انطلق النضال من مرجعية يشترك فيها مع كل الشعوب العربية والإسلامية مجسدا ذلك في العامل الروحي المقترن بالدين الإسلامي ولغته العربية، إضافة إلى التاريخ المشترك، وهذا أعطى التقارب والوحدة في الرؤيا والموقف، وحتى في التوجه بالنضال لنصرة الأمة العربية الإسلامية ومقوماتها من دين ولغة، وهو ما اشترك فيه الجزائريون مع إخوانهم العرب المسلمين وعلى فترات متوالية من نضالهم الوطني، وعلى اختلاف أشكاله سواء سياسي أو عسكري، بحيث عندما نتتبع مسار النضال من مطلع القرن العشرين إلى الاستقلال نجد المرجعية لم تتغير، ونلمس تمسكا مطلقا بثوابت أصالة الشعب الجزائري بالدفاع عن الإسلام، واللغة العربية، والهوية الوطنية.

امتد التقارب في مرحلة أخرى بطريقة تعبر كذلك عن تأييد الثقافة العربية على عهد كفاح الأمير خالد، الذي بالرغم من أنه يحسب على جماعة خريجي المدرسة الفرنسية إلا أن تأثير بيئته العربية الإسلامية التي تربى في أحضانها وتكوينه أسهم في تبلور واتضاح المعالم الأولى للحركة الوطنية الجزائرية بتأسيسه لتيار المساواة، والذي تمخض عن انقسام جماعة النخبة المفرنسة بعد رفض بعضهم رفقة الأمير خالد قبول التجنيس مع التخلي عن الأحوال الشخصية، وعبر عن موقفه بإنشاء تيار جديد أصر فيه على الهوية العربية الإسلامية وعدم المساومة عليها مقابل إصلاحات سياسية واجتماعية، إذن، بهذا التوجه أسهم في حدوث منعرج في مساره النضالي يصب ضمنيا في فكر القومية العربية الإسلامية (حباش، ف. أوت 2016: 207-209).

سيتكرر التقارب مرة أخرى مع تطور الحركة الوطنية في فترة ما بين الحربين وتشكل التيارات الوطنية، والتي كان لنشاط الأمير خالد ما بين 1919 و1923 دور ومرجعية لها منها على سبيل المثال تيار العلماء واتجاهه الإصلاحي القائم على الهوية الإسلامية وأفكار الحركات الاصلاحية العربية

المشرقية، اهتم بالدفاع عن ثوابت الأمة " الدين واللغة"، وكذلك التيار الاستقلالي الذي جاء برنامجه في فترة الثلاثينيات حاملا لمطالب ارتبطت بفصل الدين عن الدولة، وحرية التعليم العربي، وتسوية وضعية اللغة العربية، ونجد كذلك تأثير الأمير خالد في التيار الاندماجي الذي كان معه في صراع حتى 1923، حاول عناصره مع 1927 تغيير توجههم بتبني برنامج الأمير الذي أقره سنة 1919، والقاضي بالمطالبة بالإصلاحات مع عدم التخلي على الأحوال الشخصية (حباش، ف. أوت 2016: 207-209).

نجد تأثيرا نوعيا آخر لهذه العلاقة في تطور النضال الوطني السياسي خاصة بعد اتضاح معالم تيارات الحركة الوطنية ودخولها مرحلة الممارسة السياسية خلال فترة الثلاثينيات والأربعينيات، إذ حدث تقارب بين التيارات الوطنية أولا مع المؤتمر الإسلامي الذي انعقد في دورتين 1936 و1937، وهو في الواقع امتداد لسلسلة المؤتمرات الإسلامية التي انعقدت سابقا من قبل المسلمين في العديد من البلدان، وحاول الجزائريون الاستفادة منها في نضالهم ضد الاستعمار وطرح قضيتهم، وهو ما وقع بمباركة جمعية العلماء المسلمين برئاسة عبد الحميد بن باديس الذي كان يدعو لذلك منذ 1932، وتحققت الدعوة على أرض الواقع مع توافر الظروف، منها انتصار الجبهة الشعبية واعتلاؤها الحكم بفرنسا سنة 1935، وتقديم الحكومة الفرنسية مجموعة إصلاحات لصالح الجزائريين من خلال مشروع بلوم فيوليت، الأمر الذي شجع الإدماجين للخوض في النشاط السياسي، وبالتالي وجدت فكرة ابن باديس حول عقد مؤتمر إسلامي الاستجابة، وحدث تقارب بين التيارات الوطنية خاصة بين الإصلاحيين والإدماجيين، وتم عقد المؤتمر من أجل مناقشة الاصلاحات المطروحة من قبل الحكومة الفرنسية، والخروج بمجموعة من المطالب تتماشى مع وضعية الجزائريين، عموما كان المؤتمر بمثابة تجمع شعبي جمع الجميع على اختلاف انتمائهم، اتفقوا كلهم حول القضية الوطنية، وكيفية التصدي أمام استعمار يسعي إلى طمس هويتهم العربية الإسلامية خاصة بعد الاحتفال المئوي للاستعمار الفرنسي بالجزائر، وما صاحبه من انتهاكات في الهوية، بصفة عامة نقول المطالب التي انبثقت عن المؤتمر حملت البعد العربي الإسلامي أي تم التركيز على حرية الممارسة الدينية، وحرية التعليم والتعبير باللغة العربية (بن أزواو، ف. 2013/2012: 102)/ (أبو القاسم، س. 1992: ج3، 151-164).

من جهة أخرى نستحضر تأثير المشرق في هذه المرحلة عندما سمح بحدوث تقارب بين التيار الإصلاحي بقيادة عبد الحميد بن باديس والتيار الاستقلالي بقيادة مصالي الحاج بمباركة من شكيب أرسلان الذي نصح مصالي بضرورة إعطاء النجم أكثر فاعلية سياسية في القضايا العربية والإسلامية ووجوب التقرب من الإصلاحيين حتى يتخلص من سيطرة اليساريين، وكذلك ليعطي للحزب أكثر مصداقية وشعبية بالجزائر بتبني البعد العربي الإسلامي في برنامجه (بلقاسم، م. 2013: 376).

_ تعدى عامل التقارب والوحدة النضالية تحت تأثير المشرق فكريا وسياسيا على المغرب العربي من خلال تغير توجه التيارات السياسية المغاربية بما فيها الجزائر، ومحاولة التخلص من النضال المحدود والقطري المقترن بصراع الجزائريين ضد الاستعمار الذي استولى على السلطة ببلادهم، وبلوغ نوع من النضال ذي بعد مغاربي أولا، ثم قومي عربي بالاتحاد في هيئات مشتركة تقوي مواقفهم، وكانت أولى مظاهرها في العلاقة التي جمعت المغاربة بشكيب أرسلان، ثم التواجد في هيئات نضالية مشتركة كمكتب المغرب العربي...إلخ، وبالطبع كان هذا من منطلق المعاناة المشتركة من الاستعمار وسياسته الاستعمارية القائمة على مبدأ التفرقة، وهذه الوحدة حسب ما جاء به أرسلان ومن أيده ضرورية لكن تكون عبر مراحل وأقسام لضمان نجاحها أمام استعمار قوي.

_ أسهم التواصل بالشخصيات المشرقية في تبلور التوجه السياسي لبعض التيارات منها التيار الاستقلالي الذي تخلص من السيطرة الماركسية الشيوعية، خاصة بعد الحرب التي أعلنها الحزب الشيوعي الفرنسي ضده بعد مطالبته باستقلال الجزائر، إذن، أصبح له بعد عربي إسلامي، والذي ضمن له الاستمرار والانتشار بين الأوساط الشعبية .

_ طورت العلاقة أفق النضال عند التيارات الوطنية وذلك بإبداء المواقف والخوض في القضايا العربية على أساس المعاناة المشتركة والمرتبطة بالاستعمار الأوروبي، وسياسته بمختلف البلاد العربية ، وفي مقدمة القضايا التي حظيت باهتمام كبير " القضية الفلسطينية"، والتي كانت حاضرة في نضال الجزائريين وفي مختلف الفترات كقضية جوهرية، فهي وردت في جرائدهم في مقدمتها صحف العلماء، ناهيك عن التصريحات التي أصدرها زعماؤها، على رأسهم ابن باديس، والشيخ العقبي، البشير الإبراهيمي خاصة سنة 1948 بعد إعلان دولة إسرائيل (بن خليف، م. 2010: 335-336)/ (مريوش، أ: 2006: 412-413).

تعدى الخوض في المسألة الفلسطينية مجال التصريح إلى توجيه مذكرات احتجاج وتنديد إلى مختلف الهيئات كالجامعة العربية، والأمم المتحدة، وتقديم الدعم المادي لهم من خلال الدعوات التي وردت على لسان العلماء، وخاصة على لسان الشيخ الطيب العقبي الذي نادى بإنشاء لجنة إغاثة فلسطين مكلفة بجع التبرعات وحاول التنسيق مع مناضلي حزب الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري، وحركة الانتصار للحريات الديمقراطية، وفعلا نجح في ذلك وحقق دعما ماليا للإخوة الفلسطينيين (مريوش، أ. 2006: 412-413)/ (حميدي، أ ص. 2015: 129-136).

من زاوية أخرى نجد هذا الموقف والمبادرة لصالح فلسطين أسهم في إحداث تقارب جديد بين التيارات الوطنية في أواخر الأربعينيات والاتفاق ليس حول قضية وطنية وإنما قضية قومية عربية وهذا يدل على

التمسك والاقتناع بالمصير العربي المشترك، بالإضافة إلى أنهم يرون في القضية شأنا دينيا مقدسا يستوجب الجهاد باسمه.

للإشارة الخوض في القضية الفلسطينية لم يرتبط بالأربعينيات وإنما كان واردا في فترات ومراحل النضال الجزائري كلها، حيث كان طرح المعاناة موجودا في أدبيات النضال منها في مطلع القرن العشرين حيث نجد عمر بن قدور أحد رواد النهضة الجزائرية قد خاض في كتاباته لخطر الصهيونية واليهود على ممتلكات الدولة العثمانية في المشرق العربي، واستمر طرحها كإحدى المشكلات إلى جانب الاستعمار التي يعاني منها العالمان العربي والإسلامي (قرين، م. 2013: ج1، 234–236)، وبرزت أكثر في نشاط جمعية العلماء المسلمين فهي استنكرت سياسة الانتداب البريطاني وعبرت عنه بجرائدها منها البصائر التي جاء فيها: " ...لاتزال انجلترا في ضروب إرهاق عرب فلسطين، ولا يزال العرب المجاهدون يقابلون بطشها الوحشي بالصبر الجميل... وإن كان يؤلمنا ما يرتكبه الإنجليز بإخواننا عرب فلسطين، فإنه يؤلمنا أكثر من ذلك شعورهم بعطف العالمين العربي والإسلامي، وجمود حكوماتهم عن تمثيل عواطف شعوبهم..." (بن أزواو، ف. 2013/2012: 129)، كما حذرت الجمعية في الوقت نفسه من مخاطر نجاح الصهيونية وتحقيق أهدافها بفلسطين وعدتها مؤامرة تستوجب التصدي لها، وقد وصف الوضع عبر جريدتها البصائر: "...وما أجهل العرب إذا لم يعالجوا هذه الجرثومة الصهيونية الخبيثة بالاستئصال إنهم – والله– إن يفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير... وإن أحلام صهيون قد عرفها الناس وعرفوا أنها تمتد إلى جزيرة العرب كلها وإلى جزيرة سيناء" (الإبراهيمي، م ب. 1948/2/26: 1). عموما يمكن القول الخوض في القضية الفلسطينية كان من منطلق روحي ديني، وعبرت عنه الجمعية عندما أرسلت برقية احتجاج إلى وزارة الخارجية الفرنسية تندد بالانتهاكات بالمقدسات الدينية بفلسطين، عادّةً الدفاع عنها واجبا على كل مسلم.

إلى جانب مسألة فلسطين هناك قضايا أخرى كانت محل اهتمام زعماء النضال الوطني، منها تأسيس الجامعة العربية في مارس 1945 التي رحب بها الجميع وباركوا المبادرة وعدت إنجازا إيجابيا يرسم الوحدة العربية ويجمع الشمل ضد أهم خطر الاستعمار، وفي هذا الصدد يشيد البشير الإبراهيمي بميلادها ويعدها أعظم فائدة كونها تنقل النضال من الوطنية المحدودة كالقطرية إلى الوطنية الجامعة، كما تناولوا مشاريع الوحدة وأهميتها في إيجاد تحالف شامل عسكري، اقتصادي، وثقافي للوقوف أمام الخطر الغربي المستمر والمتجدد (حميدي، أ ص. 2015: 50)/ (الإبراهيمي، م ب. 1948/8/23: 1).

_ استمرار التوافق الجزائري العربي وتمسكهم بالقومية العربية الإسلامية بعد الاستقلال، فهي لم تتوقف بانتهاء الكفاح ضد الاستعمار، بل بقيت موجودة وترجمت في عدة مواقف منها بداية مع مسألة التعريب،

التي تم تبنيها مباشرة على عهد الرئيس أحمد بن بلة بعدما واجهت الجزائر أزمة تسيير بتدبير من فرنسا، وكانت شاملة لكل المجالات كالتعليم والمعمار حسب ما ذكره الراحل بن بلة في حواره مع أحمد منصور في سلسلة شاهد على القرن، قائلا: " ...لقد بدأنا التعريب في المرحلة الأولى في كل شيء ليس في التعليم وحده، وإنما حتى في البناء والمعمار، وبقي مستمرا ولم يتوقف، وامتد إلى مناطق حتى بلاد القبائل...."، واعترف بأنه يمثل العروبة والتيار العروبي (منصور، أ. 2007: 221-222، 261). وتعدى الأمر أن أصبحت قوة إقليمية لها دور محوري في شؤون العالم العربي منذ السنوات الأولى للاستقلال إلى غاية يومنا هذا، برزت بدورها الديبلوماسي في المشاكل والخلافات، وكانت من دعاة عدم التدخل في الصراعات الداخلية وتشجع فكرة الحوار والتفاوض بدلا من الحل العسكري والاستعانة بالطرف الخارجي، مثل أزمة ليبيا، اليمن، سوريا، لم ترحب بالتدخل العسكري، كما بقيت محافظة على موقفها في دعم حركات التحرر وحق تقرير مصيرها وهو ما تجسد بمواقفها المساندة للقضية الفلسطينية ظالمة أو مظلومة ديبلوماسيا وماديا، وحتى إعلان دولة فلسطين كان من الجزائر في 1988/11/15، ونددت بحرب الخليج الثانية والغزو الأمريكي للعراق، ولا تزال تدعم الشعب الصحراوي في قضيته... وغيرها من المواقف، وهذا بالرغم من المتغيرات الدولية التي جعلت الفكر القومي أمام تحديات كبيرة أمام الضغوطات الدولية والتحولات التي عرفها الصراع العربي الإسرائيلي وما نتج عنه من معطيات تهدف إلى تقسيم منطقة الشرق الأوسط وإشغال الأنظمة العربية بصراعات مع بعضها البعض لأسباب تتعلق بالحدود، وعليه عادت مسألة القطرية التي قضت على كل محاولة للتضامن العربي.

الخاتمة:

بعد استقراء العلاقة بين المشرق والمغرب العربي من زاوية النضال نجد أن العلاقة اتخذت طابعا ثنائيا، فمن جهة شكل المشرق العربي بوصفه إطارا جغرافيا وبشريا وفكريا فرصة للجزائريين في النضال ضد الاستعمار الفرنسي، حيث شكل أحد العوامل التي أسهمت في استمرار الكفاح بمرجعية عربية إسلامية، وإيجاد حالة من التجديد الفكري العربي وبوادر نهضة بين الجزائريين، بعد محاولات متكررة ومستمرة لطمس الهوية العربية الإسلامية على يد الاستعمار الفرنسي. ومن جهة أخرى نجد هذه العلاقة سمحت بحدوث تحول في أفق النضال الجزائري الذي لم يعد نضالا وطنيا ذا طابع قطري، وإنما أصبح أوسع، يتماشى مع مبادئ الفكر القومي العربي، بالخوض في مختلف القضايا والمشاكل العربية، وتعدى لاحقا بعد الاستقلال، بأن أصبح للجزائر دور ريادي في حل القضايا العربية بشكل ديبلوماسي وبلغة الحوار.

الهوامش:

يشير محمد علي دبوز إلى : " أن الجزائر في أوائل القرن كانت ترقب وصول بريد المشرق في شوق بالغ، فإذا وصل تسارع الناس لقراءة ما يصل من كتب المشرق ومجلات المشرق وصحف المشرق.." (دبوز، م ع. 2013: ج2، 33).

أحدث ميلاد اللجنة ازعاجا للسلطات الاستعمارية التي لم تتأخر باستهدافها عن طريق التشكيك والتقليل من قيمة اللجنة والحط من شأنها معتمدة أساليب مختلفة منها التشهير عبر الصحافة، حيث صدر مقال بجريدة لوموند Le Monde لموريس فيرو الذي ذكر مناورات اللجنة بالمشرق ومساعيها، وأنها جبهة تضم ثلاثة أحزاب : الحزب الدستوري، وحزب الشعب، وحزب الاستقلال المراكشي، مشيرا في الوقت نفسه إلى أمينها الشيخ فضيل الورتلاني أنه ليس عربيا وإنما من البربر بهدف إثاره التفرقة، وهنا جاءه الرد مؤكدا على الوحدة والانتماء بمقال في جريدة الإخوان والصادر في 1946/10/12 قائلا: " سيتحد أبناء أفريقيا الشمالية رغم أنوف المستعمرين... إن المغرب العربي بجميع أقطاره قد خلقه الله وحدة كاملة، وأتم الله عليه نعمة هذه الوحدة بجمعه على دين واحد ولغة واحدة وظلم واحد"، مركزا بذلك على وحدة شعب المغرب العربي التاريخية والحضارية والدينية (بلقاسم، م. 2013: 477).

قائمة البيبليوغرافية المعتمد عليها في البحث:

أبو القاسم سعد الله. (1992). الحركة الوطنية الجزائرية. ج1، ج2، 3،. لبنان. دار الغرب الإسلامي.

أبو القاسم سعد الله. (2000). الحركة الوطنية الجزائرية (1860–1900). ج1. لبنان. دار الغرب الإسلامي.

أبو القاسم سعد الله. (2009).تاريخ الجزائر الثقافي. ج5. الجزائر. دار البصائر .

أبو القاسم سعد الله. (2009).تاريخ الجزائر الثقافي. ج9. الجزائر. دار البصائر .

أبو القاسم سعد الله.(2009). أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر. ج4. الجزائر. عالم المعرفة.

الإبراهيمي محمد البشير. (1948/8/23). " الجامعة العربية". **البصائر**. س2. ع 46.

الإبراهيمي محمد البشير. (1948/2/26). " ماذا نريد وماذا يريدون لفلسطين". **البصائر**. س 2. ع23.

الفاسي علال.(2003). الحركات الاستقلالية في المغرب العربي. المغرب. مؤسسة علال الفاسي.

بلاسي نبيل أحمد. (1990). الإتجاه العربي الإسلامي ودوره في تحرير الجزائر. مصر. الهيئة المصرية العامة للكتاب.

بلغيث محمد الأمين. (2007). تاريخ الجزائر المعاصر " دراسات ووثائق". لبنان. دار ابن كثير.

بلقاسم محمد (2013). وحدة المغرب العربي " فكرة وواقعا" الاتجاه الوحدوي في المغرب العربي (1910-1954) . الجزائر .البصائر الجديدة للنشر والتوزيع.

بن أزواو فتح الدين.(2013/2012).البعد العربي الإسلامي في الحركة الوطنية الجزائرية وثورة أول نوفمبر (1927-1962). أطروحة لنيل شهادة دكتوراه علوم في التاريخ المعاصر وتاريخ الثورة الجزائرية(غير منشورة). جامعة الجزائر.

بن باديس عبد الحميد. (جانفي 1938). " الوحدة العربية بين العرب وحدة سياسية. **الشهاب**. ج11. م 13.

بن خليف مالك . (2010). الفكر السياسي عند العلامة عبد الحميد بن باديس . الجزائر. دار طليطلة .

بوحوش عمار. (2015). التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية 1962. الجزائر. دار البصائر.

بوهند خالد. (2015).النخبة الجزائرية " دراسة تاريخية واجتماعية". (1892-1942). الجزائر. دار القدس.

حميدي أبو بكر الصديق.(2015). جمعية العلماء المسلمون وعلاقاتها بالعالم العربي (1947-1956). الجزائر. دار المتعلم للنشر والتوزيع.

حباش فاطمة. (صيف أوت 2016). "البعد الوطني في نضال الأمير خالد". **عصور الجديدة: ع 23**. جامعة وهران.

خياطي مصطفى. (2013). حقوق الإنسان بالجزائر خلال الاحتلال الفرنسي . الجزائر. منشورات المؤسسة الوطنية للنشر والإشهار.

دبوز محمد علي. (2013). نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة. ج1-2. الجزائر. عالم المعرفة.

عمارة محمد. (2014).تيارات الفكر الإسلامي. مصر. دار الشروق.

عويس عبد الحليم. (1985). أثر دعوة عبد الوهاب في الفكر الإسلامي الإصلاحي بالجزائر. مصر. دار الصحوة للنشر.

فيلالي عبد السلام. (2013). الجزائر " الدولة والمجتمع". الجزائر. دار الوسام العربي.

قرين مولود. (2013). عمر بن قدور الجزائري ودوره في الحركة الوطنية الجزائرية (1886-1932). ج 1. الجزائر. دار الخليل.

مريوش أحمد. (2012.).الشيخ الطيب العقبي ودوره في الحركة الوطنية الجزائرية. الجزائر. دار هومة.